وآخره شهيق ثم أخلى الكلام من لفظ التشبيه وأخرج مخرج الإستعارة وفي ذلك من المبالغة في الذم والتهجين والإفراط في التثبيط عن رفع الصوت والترغيب عنه ما فيه وإفراد الصوت مع جمع ما أضيف هو إليه للإشارة إلى قوة تشابه أصوات الحمير حتى كأنها صوت واحد هو أنكر الأصوات وقال الزمخشري إن ذلك لما أن المراد ليس بيان حال صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع بل بيان صوت هذا الجنس من بين أصوات سائر الأجناس قيل : فعلى هذا كان المناسب لصوت الحمار بتوحيد المضاف إليه وأجيب بأن المقصود من الجمع التتميم والمبالغة في التنفير فإن الصوت إذا توافقت عليه الحمير كان أنكر وأورد عليه أنه يوهم أن الأنكرية في التوافق دون الإنفراد وهو لا يناسب المقام وأجيب بأنه لا يلتفت إلى مثل هذا التوهم وقيل : لم يجمع الصوت المضاف لأنه مصدر وهو لا يثنى ولا يجمع ما لم تقصد الأنواع كما في أنكر الأصوات فتأمل والظاهر أن قوله تعالى : أن أنكر الأصوات لصوت الحمير من كلام لقمان لإبنه تنفيرا له عن رفع الصوت وقيل : هو من كلام ا تعالى وأنتهت وصية لقمان بقوله : وأغضض من صوتك رد سبحانه به عل بالمشركين الذين كانوا يتفاخرون بجهارة الصوت ورفعه مع أن ذلك يؤذي السامع ويقرع الصماخ بقوة وربما يخرق الغشاء الذي هو داخل الأذن وبين عزوجل أن مثلهم في رفع أصواتهم مثل الحمير وأن مثل أصواتهم التي يرفعونها مثل نهاقها في الشدة مع القبح الموحش وهذا الذي يليق أن يجعل وجه شبه لا الخلو عن ذكر ا تعالى كما يتوهم بناء على ما أخرج إبن أبي حاتم عن سفيان الثوري قال : صياح كل شيء تسبيحه إلا الحمار لما أن وجه الشبه ينبغي أن يكون صفة ظاهرة وخلو صوت الحمار عن الذكر ليس كذلك على أنا لا نسلم صحة هذا الخبر فإن فيه ما فيه ومثله ما شاع بين الجهلة من أن نهيق الحمار لعن للشيعة الذين لا يزالون ينهقون بسب الصحابة رضي ا تعالى عنهم ومثل هذا من الخرافات التي يمجها السمع ما عدا سمع طويل الأذنين والظاهر أن المراد بالغض من الصوت الغض منه عند المتكلم والمحاورة وقيل : الغض من الصوت مطلقا فيشمل الغض منه عند العطاس فلا ينبغي أن يرفع صوته عنده إن أمكنه عدم الرفع وروى عن أبي عبدا رضي ا تعالى عنه ما يقتضيه ثم أن الغض ممدوح أن لم يدع داع شرعي إلى خلافه وأردف الأمر بالقصد في المشي بالأمر بالغض من الصوت لما أنه كثيرا ما يتوصل إلى المطلوب بالصوت بعد العجز عن التوصل إليه بالمشي كذا قيل هذا وأبعد بعضهم في الكلام على هذين الأمرين فقال : إن الأول إشارة إلى التوسط في الأفعال والثاني إشارة إلى الإحتراز من فضول الكلام والتوسط في الأقوال وجعل قوله تعالى : إن تك مثقال حبة من خردل إلخ إشارة إلى إصلاح الضمير وهو كما ترى .

وقرأ إبن أبي عبلة أصوات الحمير بالجمع بغير لام التأكيد ألم تروا أن ا سخر لكم ما في السموات وما في الأرض رجوع إلى سنن ما سلف قبل قصة لقمان من خطاب المشركين وتوبيخ لهم على إصرارهم على ما هم عليه مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد والتسخير على ما قال الراغب سياقة الشيء إلى الغرض المختص به قهرا وفي إرشاد العقل السليم المراد به إما جعل المسخر بحيث ينفع المسخر له أعم من أن يكون منقادا له يتصرف فيه كيف يشاء ويستعمله كيف يريد كعامة ما في الأرض من الأشياء المسخرة للإنسان المستعملة له من الجماد والحيوان أولا يكون كذلك بل يكون سببا لحصول مراده من غير أن يكون له دخل في إستعماله كجميع ما في السموات من الأشياء التي نيطت بها مصالح العباد معاشا أو معادا وأما جعله منقادا للأمر مذللا على أن معنى لكم لأجلكم